العبور... نهارًا

ملحمة شعرية

للشاعر خالد أبو خالد

ـ بدوية
بدوية
والنخل يكوّم في عينيك البلح الاشقر
ينأى بالبدوي الشارد
في فلوات الجوع
وفي بيداء العطش
يصيح
ويملأ صوت الصمت
نداء
حبا للريح الغربية
للارض السمراء ،
الحمراء ،
الخضراء
الارض الغربية
ـ زغاريدنا ..
يا رداء السماء الفسيحة
حمراء لا تنتهي
أو تزول
ولا تعرف المستحيل
اصبغينا بلونك
كوني على النحل أرجوحة
للعيون الحبيبة
وخلّ ربوع قرانا
حقولا من الورد
أحمر
ـ يا وجع العمر الطافح بالاوجاع
حكايتنا
واحدة الصفحة
والاسطر
والاحرف
والنقطة
والفاصل
واحدة بدوية
ـ عبرت اليك
وألقيت حملي على الشط
جعت
ظمئت
تنفست نارا على شفتيك
وأشرقت في مقلتيك
شموسا
هم الاهل
والصحب
أنت
أنا
والصغار الظماء
العذارى
القباب
الشبابيك
عاشت
وعشرون ألفا
وعشنا
ـ وبعينيك نخبل بطفو
يبحر
يحملني
يضرب مجذافا
أجنحة
في « شط العرب »
وطير النورس
مسكين طير النورس
اذ يتعب
يتعب
يفرق مثلي
لا يصل الوطن الغربي الازرق
خلف الليل
ـ ... ومذ غيبتك عن العين
أبوابها المشرعات
انكفأت
وجرجرت نفسي بين الخرائب
زحفا
بلا راحتين
ولا قدمين
دفقت نزيفا من الدم طفلا
وتهرسني باهشات الحديد
وتعجن لحمي بلحمك
ليس يفرقنا بعد هذا
ولا الموت
ذوبي بأعصابي الضابرات الشقية
يا بدوية
ـ عيناك ملاذ انيني
أنا والموت
الموت
الموت
الموت
الغربة
خلينا ... اغتال الموت قبيلتنا
لم يندبها أحد غير الشعر
فخلينا
نبعثها في قلبينا
لا نحكي مثل زمان
عن اثر دارس
بدوية
وعيونك وعد قبيلتنا
وعدي
ميجنتي
ـ « أوف
يا عيونك أوف
لعيونك لاحمل بارودة
لعيونك لافدي دماتي
وبعيونك أفتح طريقي
وآخذ بالثار
يا عيونك أوف
بدوية »
ـ على بسط الجمر خلفت قومي
فخذا
وبطنا
ونهدا
تدوسهم الخيل صبح مساء
تغذى عليهم صقور العوادي

وتلك أصابع أطفالنا المرهفات
وباءٌ
وأعينهم زينة للامبرة
أسنانهم
شمعة أشعلوها على الرف
تحفة
وحملها البوم فوق جناحيه
للروم
في الجزر المظلمات
بشارة
ـ الغربة آه طالت ما عشنا
فرح الاطفال
ولا شفنا عيدا
أو غنينا
قلنا ، قلنا
وحكينا ... ونشجنا
أبكينا حتى النهر
وحتى الصخر
لا يبكي أحد دمنا
لا يبصر دمنا
فالجوقة عمياء ونائمة
تحلم
لا تدري ان حصاد العمر احترق
وصار رمادا في بيدرها
لكن تطحنه
تأكله خبزا يوميا
ليست تتبين طعم رغيف
معجون بدم المستقبل
ليست
ـ وانا غريبان
والرمل يبتلع الغرباء الحيارى
اذ أسلموه المقاليد
فضّي
انزعي عن سمانا عباءاتها المثقلات
بدم الضحايا
ـ من منا أبحر في فلوات الغربة أكثر؟
لا أسأل
فالغربة اذ تولد في ذات الغربة
تشرق حبا
ما الحب سوانا
يا عيني
قولي
وتعالي
أعطيني خاتمك الفيروزيّ
خذي عينيّ .. خذي
وخذي
وخذي
وخذيني .. سيفا
ورفيقا .. للمدن الزرقاء هدية
بدوية
أصرخ بدوية
عيناك عباءتنا المفرودة
للفقراء خياما
واحات .. وجداول
للعطشى ..
للعطشانين .
ـ « وارد عالميّ
خيّال الزرقا
وارد عالميّ
فرسه نشوانة
ووارد عالميّ »
ـ وأذكر يوم عرفتك
قلت كلاما عاديا
قلت
وكانت خيمتنا
صيوانا مترفة .. كانت
لكنا قلنا شيئا لم يجتز بحر السكتة
أذكر
بدوية
وصمتّ .. صمتّ .. صمتّ
شربت عذابي
حتى انفجر بعينيك اليوم
الآن .. الآن
هنا
يتعانق نهر زفّ ونهر
في عينيك
شرعت سيوف البرق
ذبحت الحزن رفيقي
ألقيت به بعدي
بعدي
وجثوت اصلّي
ـ « بدوية
لارحل في الليل
على ديرتنا
لارحل في الليل »
ـ لماذا كنت .. وصرت
وأنت الآن
غريبة ؟
ـ عصرت جبيني
لهاثي
ومت
صحوت
ومت
صحوت
عرفت بأني أخيرا لقيتك
أن الصحارى صمتن
ازاء هنافي باسمك
وما عنك حدثن
أو قلن
مرّت
ومدت اليك يديها
توارت مع الشمس عند المساء
وغابت على شالها اللبلكي
فألقبت للغرب وجهي
تناولت شمسي
من الشرق
عانقت فيك جنين المطر
صحوت وفي مقلتيك دمائي
مرجانتان
حملتك فوق حزامي سلاحا
عبرت بك البحر
أصبح للسندباد رفيقه
وما عاد للسندباد عروس على كل
شاطىء
وصار لعينيك
صار الرحيل
وصار الاياب
ولما تناولت كفك أنت بكفي
ارتمينا بفيء الشجيرات عند اريحا
شباكا تمرست الصيد
شدت اليها القمر
وفي قمم السدر علقت سيفي
مزارا
تحج اليه القبائل من كل فج وصوب
ومنه بعينيك ظلي
أنا كل فرسان هذي العصور
أنا كل من قال شعرا
وغنى العتابا
المواويل
ـ « يا ليل
يا عين
أوف .. »
ومذ كنت أنت وسام القبيلة
يا ابنة عمي
أنا عنترة
واني ذكرتك يوم المعارك
والمجزرة
ومني تنهل تلك الحراب التي لم اقبّل
وقاتلت ..
قاتلت ..
حتى سقطت جريحا

وعاشت جموع القبيلة للمرة الالف
ذل السبايا

وهدّوا خباءك
هدوه فوقي
زحفت اليك
صرخت عليك .
فما ردّ غيري
انعطفت على صافنات النخيل
سألت الفجيعة
ما ردّ غيري
قلبت ركام الجثث
لعلي اعرف وجهك
عينيك
بين الوجوه
وبين العيون
فضاعت يميني
وضاعت عيوني
كاني لمحتك
وغبت ...
وكنت جريحة
ـ « ويا ويلي عليهم
عتابا المجاريح
سالت مع السيل
حفرة كسيحة
ويا ويلي الحبايب
جدايل
جدايل »
ـ تعالي نمدد جرحا حملناه دهرا
ونشرب نخب ولادة عرس الصبايا
النخيل
وبيارة البرتقال
وزيتونة الدار
أم الربيع
تعالي وهذي يدي
في تضاريسها
ينابيع ليست تصب سوى فيديك
أحب مراياك وجهي
غني
فديتك
كم أنت حلوة
سقطت عليك شهيدا
وقمت
سقطت
وكانت قيامتنا
القدس

عمان .. غزة
والمجزرة
وياويلهم هبّ من قبرهم
كل أطفالنا
والجموع القتيلة
ـ « يا ليل ياللي عيونك بكت
عليّ .. وعليهم
عيونك بكت
وقلبك بكى
وعمرك شريته .. بعمري »
ـ أنا البدوي الذي أصلعته الصحارى
اليك
فعاش يتيما
كصبارة فوق قبر يتيم
أنا القبر
خلفتني فيه حيا
لماذا ؟
وفي الكون متسع لكلينا
ونحن صغيران
يكفيك مني بباطن كفك قبلة
وحسبي منك
ارتعاش بظاهر كفي عبلة
وأمضي وزاء الغزاة
أرد السبايا
وأفرح من شفتيك ببسمة
ضرير أنا اليوم
حطّي
بعينيّ ... عينيك
دربي تعثرت فيه طويلا
تلمست جدرانه المغلقات
بكيت
وأقعيت في جب يوسف
ناديت
يا أخوتي
وناديت ربي في حوت يونس
ما ردّ ربي
ولا اخوتي
وكنت كأيوب وحدي
دون رفاق يدلّون للبحر خطوي
أنا ما ضللت اليك الطريق
اعذريني
اذا ضيعتني الدروب التي قطعوها
كقلبي
التي حاصروني عليها .. وجرحي
فدرت

ودارت بي الريح
الفت براسي تحت حذاء اليزيد
ونصفين صرت
وما لمني قاتلي
او بكاني
وكل المطارح لي كربلاء
وعيناك
عيناك مدّ البحار التي لم يصلها
شراعي المزق
في النيل
والنيل ما زال سفرا
سجينا لدى الجان
في قلعه الحبشي
وصنعاء أنت انتظاري
الذي حاصرته جيوش النجاشي
تسحق في سورها رئتيّ
معلقه جثتي في القراع المدمّى
ممرا لعمان .. وهي حريق (*)
ـ « ويا شوق
يا دندنات العتابا
ويا عابرين الدروب
ويا محملين الاسية
مدوا ضلوعي
مدوا عيوني
حمالة للجريح اللي قلبه علينا »
ـ خذيني بعينيك صيف سنابل
يا أغنيات المناجل
يا بدوية
انهضي في ذراعي
رمحا ، وترسا
ووشم حمامة
افرشي ريشها أسهما
ـ اتبعوني .. صعاليك كل القبائل
هذا زمان الصعاليك
مات زمان الامير المخدر بالدم
صارت « عظامه مكاحل »
ويا نسل جيل الجواري
اضفروا شعرهن على الليل

(*) تقول الاسطورة بان النيل كان مرصودا بسفر سجين في الحبشة ، وعندما كان سيف بن ذي يزن يحاول أخذه ليجري نهر النيل في مصر ، سجنه الجان بين الارض والسماء فترة من الزمن .

غاب مشانق
ـ هنا نحن يا هند
اين بقايا القبيلة ؟
أين انتصاراتنا ؟
والسيوف التي ثلمتها المعارك ؟
أين الهلالي فينا
يغازله الغرب
يمشي اليه على راس جيش محارب؟
ـ تدلى اسمه يوم كنا ثريدا
ولحما
وبرميل خمر
وانبوب نفط
وقرطاس فتوى
على طاولات الامير
تدلى ومات
وكنا نحارب
ـ على قمة في الشمال انتصبت
وعينيك
يا ساريات البيارق
ـ « ولولا عيونك ما اطلعت انا
عالجبال
ولولا عيونك
ما سافرت حربتي
للمحال »
ـ وآه حبيبتي الحزن .. والموت
بكر حلمت بانك
لكن ..
وكنت طريحتهم
غير اني
على طول دربي اليك
سقوط الحضارة
آه
وخرّ الاله صريعا
« وزلزلت الارض زلزالها
واخرجت الارض اثقالها »
بعمان
كل المدائن عمان
كل التواريخ .. ايلول
والجلجلات .. حزيران
اني أدوخ
فلا عن صليبي نزلت
ولا للسماء صعدت
ولكنني المعجزة
انا الطفل في المهد كلمتهم
فازدروني
ولما كبرت بهم طاردوني
ولما شفيت لهم برصهم
عميهم
واحييت امواتهم
سمّروني
يهوذا بريء
فكل الملايين من لم يقاتل
ومن شاهدوني
ولم يفتدوني
ومن قبلوني
ومن لم يخبرهم الصوت اني صلبت
جميعا يهوذا
انزعينا عن الخشبات
وخلي المسامير فينا سلاحاً
نولد من خاصرات الحبالى النهار
جيوشا تدمر موج التتار
وليست تصلي
وليست تنام
وتزحف في لبنات البيوت
وفي ناصيات الشوارع
في محرقات الصفيح
وفي الموت
تزحف عيدا من الرعب
في كل « حمّر »
ـ « ويا ميجنا لك
يا ميجنا
من الغرب نسئم
هوا حبابنا »
ـ شريدان نكتب في الارض
سفرا جديدا
به الريح ،
والماء ،
والنار ،
نذر علينا ..
لكل الذبائح منا
فمن فمنا انهلّ صوت النبي القتيل
ـ تعالوا اليّ
انصتوا لي
فمن قلب قلبي الطريق
اباركم ان عبرتم
والعنكم ان فررتم
واسخطكم ان تذبذبتم
أو ضعفتم
فمن قلب قلبي الطريق
انظروا حيث يمضي اصبعي
هناك انتظرت الجموع
على القمم السبع
عمان يا قمة الصاعدين الى القدس
ملعونة يا عيون بنيها التي فتحت
دونها
والتوت للوراء
تعالوا اليّ اعبروا كل جرح بعنقي
بعينيّ
كل جراحي للعابرين جسور
وكلي نوافذ
تعالوا اليّ .. اعبروا
واصمتوا مرة بعد ذبحي
اصمتوا
واعبروني
وكونوا كما يوم قطعتموني
وشاركتم الروم اكل جفوني
ـ وطحن عظامي
ورأسي ـ هدية ـ
ودمي
مساحيق للمرأة العاهرة
باركتكم ان عبرتم
والعنكم ان فررتم
واسخطكم ان وقفتم
فمن قلب قلبي الطريق
ـ عبرت
اصعدي بي جبال المنافي
عاما
وعاما
وجيلا
فكل المنافي لنا وحدنا
اي منفى جهلناه عبر السنين المريرة
ـ يا أيها الميتون
انهضوا
جئتكم من قرار البطولة
جئت محمد عصر أتى
جئتكم ..
ويلكم .. والهزيمة ..

خالد ابو خالد

البصرة ـ بغداد